عزيزي الصغير

رواية

معتز هيثم كرم

لا أعرف من أين أبدأ

جلستُ أمام هذه الورقة منذ ساعة، أحدّق فيها، وهي تحدّق فيّ. القلم بين أصابعي لكنه لا يتحرك، كأنه يعرف ثقل ما سأكتبه ويتهيّب. ربما أنا الذي يتهيّب، لا القلم

أنت الآن في مكان ما في الماضي، لا تعرف أنني موجود. لا تعرف أنك ستصبحني. وأنا هنا، في هذه الشقة الصغيرة التي لا يعرف عنوانها أحد، أحاول أن أكتب لك رسالة لم يطلبها منّي أحد، ولم أقرأ عنها في أي كتاب، ولم يأمرني بها أي طبيب. أكتبها لأنني لم أعد أعرف كيف أتكلم مع نفسي إلا هكذا، من خلالك أنت، يا من كنتُه يوماً.

اسمي مازن. اسمك أيضاً مازن. لكننا لسنا نفس الشخص، وهذا هو الألم بالضبط.

* * *

الساعة الآن تجاوزت منتصف الليل. المدينة تنام وأنا مستيقظ كالعادة، أجلس على الأرض مسنداً ظهري إلى الأريكة، لأن الجلوس على الأريكة بشكل صحيح يبدو مجهوداً كثيراً في هذه الأيام. أمامي كوب شاي بارد نسيت أن أشربه، وعلى الشاشة شريط إشعارات لا ينتهي؛ رسائل من العمل، ورسائل من ليلى، ورسالة من أمي منذ أسبوع لم أردّ عليها بعد.

الجميع يظن أنني بخير

وأنا أجيد هذه اللعبة، يا صغير. أجيدها منذ كنت في عمرك

* * *

الغريب أن كل شيء في حياتي يبدو صحيحاً من الخارج. وظيفة جيدة، شقة خاصة بي، ليلى التي تحبني بطريقة لا أستحقها. لكن في الداخل، يا صغير، في الداخل يوجد شيء مكسور منذ زمن بعيد، ولم يعرف أحد يُصلحه، ربما لأن أحداً لم يُخبَر بأنه مكسور أصلاً.

قرأت مرة أن الطفل الذي لا يُحضَن يكبر وفي داخله ثقب. ضحكت حين قرأتها، ليس لأنها مضحكة، بل لأنها كانت دقيقة جداً لدرجة أنها آلمتني. ثقب، هكذا بالضبط. ليس جرحاً ينزف، ولا مرضاً يُعالَج، مجرد غياب، مساحة فارغة في المكان الذي كان يجب أن يكون فيه شيء ما.

أكتب لك هذه الرسالة لأنني لا أعرف كيف أصل إليك بطريقة أخرى. لأن كل ما أنا عليه الآن بدأ هناك، في تلك الأيام التي لا تتذكرها أنت لكنني لا أستطيع أنا أن أنساها.

* * *

ليلى سألتني الليلة قبل أن تغادر: ما الذي يدور في بالك؟

قلت لها: لا شيء

ابتسمت بتلك الطريقة التي تعني أنها لا تصدق، لكنها لن تكمل. وقفت عند الباب لحظة، كأنها تنتظر أن أُضيف شيئاً. لم أُضف. أغلقت الباب برفق، وبقيت وحدي مع الصمت وكوب الشاي البارد وهذه الأفكار التي لا تغادر.

أتساءل أحياناً لماذا تصبر عليّ.

ثم أتذكر أنني تعلمت منذ صغري أن لا أسأل «لماذا» عن الأشياء الجيدة، لأن السؤال يجلب الخوف من أن تزول.

*** * ***

عزيزي الصغير، لن أعدك بأن هذه الرسائل ستُصلح شيئاً. لست متأكداً أنا نفسي مما أريد منها. ربما أريد فقط أن أعود إليك، أن أرى من أين بدأ كل هذا. ربما أريد أن أقول لك الأشياء التي لم يقلها لك أحد، حتى لو لم تسمعها فعلاً.

ربما أريد فقط أن يسمعني أحد. حتى لو كان هذا الأحد هو أنا

دعني أصف لك البيت.

ليس لأنك لا تعرفه، أنت تعرفه أكثر مني. لكنني أريد أن أصفه أنا، بعيني أنا، لأن هناك أشياء في البيوت لا يراها إلا من غادرها.

كان البيت من طابقين. الطابق الأرضي للجلوس والأكل والادّعاء، والطابق العلوي للنوم والبكاء والأسرار. الجدران بيضاء لكنها لم تكن يوماً نظيفة تماماً؛ دائماً هناك بقعة فوق المفتاح، أو خدش قرب الباب لم يُصلح أحد. كأن البيت كان يحتفظ بكل الأشياء الصغيرة التي أهملناها.

في المطبخ كانت رائحة البصل المقلي تسكن الستائر. في الصالون كان هناك تلفزيون ضخم يعمل دائماً حتى حين لا أحد يشاهده، لأن الصمت كان أثقل من أي برنامج. وفي الغرفة التي كانت تسمى «غرفة أبوك»، كانت هناك رائحة أخرى، رائحة لا أعرف تسميتها حتى الآن، ربما هي رائحة رجل متعب لا يريد أن يُزعَج.

* * *

أبوك، يا مازن.

لا أعرف كيف أكتب عنه بدون أن تتصلّب أصابعي على القلم. حاولت أكثر من مرة أن أبدأ جملة بـ«أبي كان...» فتقف الجملة في منتصفها وترفض أن تكتمل.

لم يكن وحشاً. هذا أصعب ما في الأمر. لو كان وحشاً لكان الأمر أبسط، لكان عندي مبرر واضح، قصة أرويها، ضحية أكونها. لكنه لم يكن وحشاً، كان مجرد غائب. موجود في البيت ومع ذلك غائب، يجلس على كرسيه ويأكل على مائدتنا وينام تحت سقفنا، لكنه لم يكن هناك فعلاً. كأنه جسد بلا روح، أو روح بلا اهتمام.

حين كنت صغيراً ظننت أن هذا طبيعي. ظننت أن كل الآباء هكذا، كتل من الصمت تتحرك بين الغرف.

* * *

أتذكر يوماً كنت في الثامنة من عمري. جئت من المدرسة بورقة رسمتها في حصة الفن، شجرة كبيرة بأوراق خضراء وطيور صفراء على الأغصان. قضيت ساعة كاملة عليها وكانت المعلمة قالت إنها جميلة.

وجدتُه جالساً على الكرسي كالعادة، أمامه صحيفة أو ربما التلفزيون، لا أتذكر بالضبط. مددت الورقة نحوه وقلت بالطريقة التي يتكلم بها الأطفال حين يريدون الانتباه: «بابا، شوف».

نظر نحوي. نظرة سريعة، أقل من ثانية. قال: «تمام.» وعاد لما كان يفعله.

وقفت مكاني لحظة، الورقة لا تزال في يدي. ثم ذهبت إلى غرفتي وطويت الورقة ووضعتها في أسفل الدرج ولم أُخرجها مرة أخرى.

لم أبكِ. لاحظت هذا بعد سنوات، لم أبكِ يومها. فقط طويت الورقة وأغلقت الدرج.

ربما هذا هو أول شيء تعلمته في حياتك يا مازن: أن تطوي ما يؤلمك وتضعه في الدرج. وأن تُغلق الدرج بهدوء.

* * *

أمّك كانت تحبك. أريد أن أقول هذا بوضوح لأنني كثيراً ما ظلمتها في تفكيري.

كانت تحبك بالطريقة التي تعرفها. كانت تطبخ لك وتغسل ملابسك وتسأل عن مذاكرتك. كانت تسهر إذا مرضت وتمسح جبهتك بقطعة قماش مبللة. لكن الحضن كان نادراً، والكلمة الحلوة كانت تحتاج مناسبة، وعبارة «أنا فخورة بك» لم أسمعها منها أبداً، حتى حين كنت أستحقها.

لاحقاً فهمت أنها هي أيضاً لم تتعلم. أن هناك أشياء لا يستطيع أحد أن يعطيها إذا لم يتلقَّها هو أولاً. وهي أيضاً كان لها أدراجها المغلقة.

لكن الفهم لا يلغي الجرح. الفهم يجعل الجرح أكثر حزناً فقط، لأنك تُضيف إلى ألمك ألمهم.

* * *

الشيء الوحيد الدافئ في ذلك البيت كانت يد جدّتي.

لكن هذا حديث آخر، لا أريد أن أكتب عنها الآن. ليس لأنها لا تستحق، بل لأنني حين أفكر فيها يضيق صدري بطريقة لا أعرف كيف أصفها، كأن هناك شيئاً يريد أن يخرج ولا يجد له اسماً.

سأكتب عنها في رسالة أخرى، حين تكون أصابعي أقل ارتجافاً.

* * *

يا مازن الصغير، أريدك أن تعرف شيئاً واحداً الآن

لم يكن خطأك.

لم يكن غيابه بسببك. لم يكن صمته عقاباً لك. لم تكن ناقصاً، ولم تكن غير كافٍ، ولم يكن يجب أن تفعل شيئاً مختلفاً لتحصل على نظرة أطول من ثانية.

.كان هو الناقص، لا أنت

أعرف أنك لن تصدّق هذا الآن. لأنك الآن في سنّ تظن فيها أن كل ما يحدث حولك هو بسببك. لكن الحقيقة هي أن بعض الآباء يأتون إلى الأبوّة وهم أفقر مما تحتاجه أبناؤهم. لا ذنب لهم تماماً، لكن لا ذنب لك أبداً

.كنت تسمعها

أعرف أنك كنت تسمعها. لأنني أنا أيضاً كنت أسمعها، وكنا نفس .الشخص في تلك الأيام

كانت الجدران رقيقة في ذلك البيت، أو ربما الليل هو الذي كان يجعل كل شيء أوضح. تلك الأصوات الخافتة التي تأتي من وراء الباب المغلق، أصوات لا تريد أن تُسمع لكنها لا تستطيع أن تصمت. كنت تضع رأسك على الوسادة وتغمض عينيك بقوة، كأن الإغماض .الشديد يمكن أن يمحو ما وصل إلى أذنيك

.لم يكن يمحو شيئاً

* * *

أمّك كانت تبكي بطريقة من يتدرّب على الصمت. بكاء مكتوم، مضغوط، كأنها تحاول أن تبتلعه قبل أن يكبر. وأحياناً كانت تنجح، وأحياناً كان الصوت يفلت منها، نشيج صغير، أنّة خافتة، شيء يشبه اسم لا يُكمَل.

كنت تسمع وتتظاهر بالنوم.

لا تلُم نفسك على هذا. كنت طفلاً. ماذا كان بإمكانك أن تفعل؟ أن تطرق الباب؟ أن تسألها؟ جرّبت مرة، أتذكر؟ طرقت الباب وقلت بصوت لم تكن واثقاً منه: «ماما، أنتِ بخير؟» وجاء صوتها فورياً، صافياً تماماً، كأنها كانت تنتظر السؤال: «نايم يا حبيبي، كل شيء تمام».

وعدتَ إلى غرفتك.

وهي عادت إلى بكائها.

* * *

الشيء الذي لم تفهمه وقتها، يا مازن، هو أنك في تلك اللحظة قررت شيئاً بدون أن تعرف أنك قررته.

.قررت أنك المسؤول

ليس بالكلام، لا أحد قال لك ذلك بالكلام. لكن الأطفال يفهمون الأشياء التي لا تُقال. يلتقطونها من الهواء، من نظرة، من صمت، من باب مغلق في منتصف الليل. وأنت التقطت هذه: أمّك حزينة، .وأبوك غائب، وأنت الوحيد الموجود

.إذن أنت المسؤول

بدأت من يومها تراقبها. تراقب وجهها حين تجلسان على مائدة الطعام، تبحث عن إشارة، هل هي بخير اليوم؟ هل الخطوط حول عينيها أقل أم أكثر؟ هل ابتسامتها تصل إلى عينيها أم تقف عند شفتيها؟ صرت تعرف مزاجها قبل أن تتكلم. صرت تُغيّر طريقتك تبعاً له. إذا بدت متعبة كنت هادئاً. إذا بدت بخير كنت تُضحكها. كنت .تعزف على نفسك كأنك آلة موسيقى في خدمة مزاجها

وهذا يا صغيري، هذا بالضبط، هو أول خيانة تعرّضت لها. لم يخنك .أحد، لكن طفولتك خُوِّفت منك

*** * ***

في إحدى الليالي، كنت في العاشرة تقريباً، استيقظت على صوت أعلى من المعتاد. ليس بكاء هذه المرة، بل كلام. أو ما يشبه الكلام، أصوات حادة متقطعة، ثم صمت، ثم صوت باب يُغلق بقوة.

جلستَ في فراشك في الظلام. قلبك يدق بطريقة تؤلم. لم تعرف ماذا تفعل فأحضرت الغطاء وغطّيت رأسك كله، وبقيت هناك في تلك الكهف الصغير الدافئ، تسمع صوت تنفسك وتحاول أن تجعله منتظماً.

في الصباح خرجت فوجدت أمك في المطبخ تصنع الفطور كالعادة. وجدت أباك يشرب قهوته كالعادة. الجميع كالعادة. الجميع يتظاهر.

وأنت أيضاً تظاهرت. جلستَ وأكلتَ وقلت «صباح الخير» ولم تسأل عن شيء. لأنك أدركت في تلك اللحظة أن التظاهر هو قواعد اللعبة في هذا البيت، وأن من لا يعرف القواعد يُؤذى.

* * *

صرت بارعاً في التظاهر.

بارعاً جداً. بارعاً حتى نسيت في بعض الأحيان أنك تتظاهر. بارعاً حتى حين كبرت وخرجت من ذلك البيت، أخذت التظاهر معك في

حقيبتك دون أن تشعر. أخذته إلى المدرسة، إلى الجامعة، إلى العمل، إلى علاقتك مع ليلى.

ليلى تسألني: ما الذي يدور في بالك؟

وأنا أقول: لا شيء.

لأن هذا ما تعلّمته. لأن هذا ما نجح في ذلك البيت. لأن الإجابة الصادقة كانت دائماً تُقابَل إما بصمت لا يطاق أو بـ«كل شيء تمام» التي لا تعني شيئاً.

*** * ***

أريد أن أقول لك شيئاً أتمنى أن يكون قاله لك أحد وقتها

أنت لم تكن مسؤولاً عن بكائها.

لم تكن مسؤولاً عن سعادتها ولا عن حزنها ولا عن الخلافات التي تفلت ليلاً ويُخفيها النهار. لم يكن عليك أن تراقب وجهها كل صباح لتعرف كيف تتصرف. لم يكن عليك أن تحمل ثقلاً لم يكن حجمه يناسب كتفيك الصغيرتين.

.كان يجب أن تكون أنت المحمول، لا الحامل

لكنهم لم يعرفوا. وأنت لم تعرف. وهذا هو الحزن الحقيقي في الأمر .كله

* * *

الليلة، بعد أن ذهبت ليلى، جلستُ في الظلام مرة أخرى. لم أُشعل النور. وجدت نفسي أُصغي، بطريقة قديمة، تلك الطريقة التي تعلمتها في طفولتك. أُصغي إلى الشقة المجاورة، إلى الشارع أسفل .النافذة، كأنني كنت لا أزال أنتظر أن أسمع شيئاً ما وراء باب مغلق

.لا شيء. الشقة هادئة. الشارع هادئ. الليل هادئ

.لكن أذني لا تزال مُدرَّبة على الإنصات إلى ما لا يُقال

ولا أعرف كيف أُوقف هذا

.قلت إنني سأكتب عنها حين تكون أصابعي أقل ارتجافاً

أصابعي لا تزال ترتجف. لكنني سأكتب على أي حال، لأن بعض .الأشياء لا تستحق الانتظار

* * *

جدّتك كانت امرأة صغيرة الحجم. هذه أول ما أتذكره عنها، أنها كانت صغيرة. أصغر من أمك، أصغر من أي شخص بالغ يجب أن يكون كبيراً في خيالك. لكنها حين تمسك يدك كانت يدها تبدو أكبر من كل شيء.

يدها. دعني أحدثك عن يدها.

كانت يداً مجعّدة، بنّية اللون من الشمس والسنين، وفيها عروق بارزة كخرائط بلاد لم تزرها. كانت خشنة قليلاً حين تلمسها لأول وهلة، لكن حين تبقى فيها تكتشف أنها دافئة بطريقة لا تشبه أي دفء آخر. ليست دفء الغطاء ولا دفء الشمس، بل دفء شيء حيّ يريدك أن تكون بخير.

كانت حين تمسك يدك لا تمسكها كأنها تمسك شيئاً هشاً. كانت تمسكها بثقة، كأنها تقول بدون كلام: أنا هنا، ولن أتركك.

لم يقل لك أحد غيرها هذا.

* * *

كنت تذهب إليها كل جمعة. هذا كان الترتيب، جمعة عند جدّتك، وكان هذا اليوم هو اليوم الوحيد في الأسبوع الذي كنت تستيقظ فيه بمحض إرادتك قبل أن يوقظك أحد.

كانت تفتح الباب قبل أن تطرقه. لا أعرف كيف كانت تعرف، ربما كانت تسمع خطواتك على السلّم، ربما كانت تنتظر. كانت تفتح الباب وتنظر إليك بتلك النظرة التي لم تتعلّمها من أحد ولم تجدها عند أحد بعدها، نظرة تقول: أنت هنا. هذا كافٍ. هذا أكثر من كافٍ.

كانت تُدخلك وتذهب إلى المطبخ وتُحضر لك كوب الشاي بالنعناع الذي تعرف أنك تحبه. لم تسألك في يوم من الأيام «تشرب إيه؟» لأنها كانت تعرف. وأن يعرفك أحد، يا مازن، أن يعرف ما تحبه بدون أن تقول، هذا نوع من الحب لا يشبهه شيء.

* * *

كانت تحكي.

حكاياتها لم تكن دائماً منطقية، وأحياناً كانت تبدأ من المنتصف وتنتهي قبل النهاية وتضحك هي ولا تشرح لماذا. لكن ذلك لم يكن مهماً. المهم كان صوتها. صوت فيه شيء كالطمأنينة، كأن العالم خارج تلك الغرفة يمكن أن ينتظر، وأنك في هذه اللحظة لست مضطراً لأن تكون محتاطاً أو هادئاً أو مسؤولاً. كنت مسموحاً لك أن تكون أنت.

.فقط أنت. مازن. الطفل. بكل فوضاه وأسئلته وكل ما يملأ رأسه

مرة سألتها وأنت في الثانية عشرة: ليه الناس بتحزن؟

سؤال كبير من طفل يحمل ما لا يناسب سنّه. لم تضحك. لم تقل «أنت لسه صغير». جلست لحظة وكأنها تأخذ السؤال بجدية تامة، «.ثم قالت: «لأن الحياة بتحب تختبر اللي بيحبوها

.لم تفهم الإجابة وقتها. لكنك حفظتها

* * *

كانت في الثالثة عشرة من عمرك. جاءت أمك إلى غرفتك بوجه مختلف، وجه لم تره من قبل، مشدود ومرتخٍ في نفس الوقت، كأنه .يحاول أن يقول شيئاً ويمنع نفسه

قالت: جدّتك... تعبانة أوي يا مازن

.لم تقل أكثر. ولم تحتج

ذهبت معهم إلى المستشفى وجلستَ في الممر على كرسي بلاستيكي أبيض وينقصه ساق. جلست ساعة أو ربما ساعتين أو ربما أكثر، الوقت في المستشفيات لا يمشي بنفس الطريقة. والناس من حولك يمشون ولا يرونك.

لم تدخل لترى. لم يأخذوك. قالوا «أنت صغير». وبقيت على الكرسي المكسور تنتظر شيئاً لا تعرف ماذا تسمّيه.

حين خرج أبوك من الغرفة ووجهه يقول ما لم يقله لسانه بعد، عرفت.

* * *

لم تبكِ في المستشفى.

لم تبكِ في السيارة وهم يعودون. لم تبكِ في البيت. ذهبت إلى غرفتك وجلست على الأرض وأسندت ظهرك إلى السرير، تماماً كما أجلس أنا الآن كل ليلة أمام الشاشة، وحدّقت في الجدار المقابل.

الجدار لم يقل شيئاً.

بكيت بعدها بثلاثة أيام. وحدك في الحمام، تحت الماء حتى لا يسمعك أحد. بكيت بكاء طويلاً وصامتاً ومحتبساً، كأن ما كان مضغوطاً داخلك منذ سنوات وجد أخيراً ثغرة صغيرة ليخرج منها.

ثم أغلقت الصنبور. ومسحت وجهك. وخرجت.

ولم تتكلم عنها مع أحد بعد ذلك اليوم. حتى الآن.

* * *

الشيء الذي لم أفهمه إلا كبيراً هو هذا: حين ماتت جدّتك، لم تفقد فقط إنساناً تحبه. فقدت المكان الوحيد الذي كان مسموحاً لك فيه أن تكون أنت. فقدت الشاهد الوحيد على طفولتك كما أردتَها أن تكون لا كما كانت.

فقدت اليد.

وحين تفقد اليد التي علّمتك أن يمسك بك أحد، تنسى أحياناً أن يدك تستحق أن يمسك بها أحد.

وتكبر وأنت تسحب يدك قبل أن يمسك بها أحد. خوفاً. لا من الإمساك، بل من الترك.

* * *

ليلى مسكت يدي الأسبوع الماضي ونحن نمشي في الشارع. مسكتها بثقة، كأنها تقول بدون كلام: أنا هنا.

سحبت يدي بعد دقيقة. بحجة أنني أريد أن أضع يدي في جيبي. لكن الحقيقة التي لا أعرف كيف أقولها لها ولا لنفسي، هي أن الإمساك آلمني. ليس لأنه كان سيئاً، بل لأنه كان يشبه شيئاً ضاع منذ زمن بعيد.

وأنا لا أعرف كيف أستقبل ما يشبه ما فقدته.

* * *

عزيزي الصغير، لو كان بإمكاني أن أعطيك شيئاً واحداً، لأعطيتك وقتاً أطول معها. جمعة واحدة أخرى. كوب شاي بالنعناع واحد أخير. ولحظة واحدة أخيرة تضع فيها يدك في يدها وتعرف أن العالم، على بشاعته، فيه أحد يمسكك.

أحبّها. لا أزال أحبها بصيغة الحاضر رغم أنها مضت منذ أكثر من عشرين عاماً. بعض الناس لا يغادرون حتى حين يغادرون. يبقون في يد لمسوها مرة، وفي كوب شاي، وفي باب يُفتح قبل أن تطرق

المدرسة كانت مكاناً آخر تماماً.

البيت على الأقل كان صامتاً. الصمت يمكن تحمّله، يمكن أن تجد له ركناً وتختبئ فيه. لكن المدرسة كانت ضجيجاً بلا توقف، أصوات وأجساداً تتحرك وعيوناً تنظر، وأنت في وسط كل هذا تحاول أن تفهم القواعد التي لم يكتبها أحد لكن الجميع يعرفها إلا أنت.

كيف تضحك بالطريقة الصحيحة. كيف تقف في الملعب. ماذا تقول حين لا يكون عندك ما تقوله. كيف تكون واحداً من المجموعة وأنت لا تعرف ما الذي يجعل المجموعة مجموعة.

كنت تراقبهم كثيراً. تجلس على الكرسي وتنظر وتحاول أن تفهم الكود السري، لكن الكود لم يكن يُفكّ. لأن الكود لا يُتعلّم بالمراقبة. يُتعلّم بالتجربة، وبالثقة، وبأن يكون عندك في البيت نموذج لكيفية الاندماج مع البشر. وهذا ما لم يكن عندك.

* * *

كان اسمه كريم.

أحياناً يكون المؤلم في حياتنا له اسم واحد واضح. كريم كان طويلاً بالنسبة لسنّه، وعنده صوت كبير وضحكة أكبر، وكان يعرف

بالغريزة من يمكنه أن يؤذيه بلا عواقب. هذا نوع من الذكاء أيضاً، ذكاء بشع، لكنه ذكاء.

اختارك.

ليس لأنك كنت ضعيفاً بالمعنى الجسدي، بل لأنك كنت وحيداً. والوحيد لا أحد يدافع عنه. والوحيد حين يتألم يتألم في صمت لأنه لا يملك من يشكو له. وكريم كان يعرف هذا بالحدس حتى لو لم يُصغّه بكلمات.

* * *

كنت في الصف السادس. يوم الأربعاء، حصة الفسحة، والشمس كانت تضرب ملعب المدرسة بلا رحمة. جلستَ على الدرجة الحجرية في آخر الملعب بعيداً عن الضجيج تقرأ كتاباً لأن القراءة كانت الطريقة الوحيدة التي تعرفها لتكون وحيداً بشكل لا يلفت الانتباه.

جاء كريم مع اثنين من رفاقه. وقف أمامك وقال بالصوت الذي يعرف أن الجميع يسمعه: «إيه ده، بيقرأ. مش لاقي حد يلعب معاه فبيقرأ».

ضحك رفاقه. ضحكة مدروسة، الضحكة التي تقول: نحن معه لا معك.

رفعت عينيك من الكتاب ونظرت إليه. لم تقل شيئاً. هذا ما فعلته دائماً، لم تقل شيئاً. لأنك تعلمت في البيت أن الصمت هو أفضل رد. لكن الصمت في المدرسة كان يُفسَّر بطريقة مختلفة. كان يعني: يمكنك أن تكمل.

أخذ كريم الكتاب من يدك. لم يكسره، لم يرمه بعيداً. فعل شيئاً أبشع من هذا، وضعه على الأرض أمامك ونظر إليك وابتسم. الابتسامة التي تقول: افعل شيئاً إن كنت تستطيع.

لم تفعل شيئاً. انتظرت حتى ذهبوا. ثم رفعتَ الكتاب ونفضتَ عنه التراب بهدوء وأكملت القراءة.

لكنك لم تكن تقرأ. كنت تحدّق في الكلمات دون أن تراها.

* * *

الشيء الذي لم تفهمه وقتها هو أن ما آلمك لم يكن كريم نفسه.

كريم كان مجرد كريم، طفل آخر يحمل جروحه بطريقة مختلفة. ما آلمك كان الصمت من حولك. عشرون طفلاً في الملعب كانوا يرون ما يحدث، ولم يقل أحدهم شيئاً. بعضهم ضحك، وبعضهم نظر بعيداً، وبعضهم واصل لعبه كأن شيئاً لم يحدث.

اللامبالاة أشدّ إيلاماً من القسوة. لأن القسوة تقول: أنت تستحق الأذى. أما اللامبالاة فتقول ما هو أقسى: أنت غير موجود أصلاً.

* * *

قرّرت في تلك الفترة شيئاً، قرار غير معلن وغير واعٍ، لكنه كان قراراً حقيقياً بكل معنى الكلمة.

قررت أن لا تحتاج أحداً.

لأن الحاجة تعني الانتظار، والانتظار يعني الخيبة، والخيبة في المدرسة تعني أن يراك أحد تنتظر وتُخذل وهذا أشد إذلالاً من أي شيء آخر. فالحل كان أن تُغلق الباب من الداخل قبل أن يصله أحد. أن تبدو كاملاً، مكتفياً، كأنك لا تريد ما لا تأخذه.

صرت تجلس وحدك بشكل يبدو مختاراً لا مفروضاً. صرت تقرأ كتاباً وكأن القراءة نعمة لا هروب. صرت تبني حول نفسك جداراً غير مرئي، شفافاً بما يكفي ليرى الناس من خلاله أنك موجود، وسميكاً بما يكفي لئلا يصلوا إليك.

وحين كبرت، أخذت الجدار معك. كما أخذت التظاهر.

* * *

ليلى قالت لي مرة: أحياناً أحس إنك موجود وغايب في نفس الوقت

.أجبتها بالابتسامة التي تعني لا شيء، وغيّرت الموضوع

لكنني فكّرت في كلامها بعد ذلك طويلاً. لأنها وصفت بدقة مذهلة ما تعلّمته في الملعب على تلك الدرجة الحجرية. أن تكون موجوداً وغائباً في نفس الوقت. أن تكون هناك بما يكفي لئلا يقلق أحد، .وغائباً بما يكفي لئلا يصل أحد

.هذه ليست شخصية يا مازن. هذه استراتيجية بقاء

* * *

.أريد أن أقول لك شيئاً عن كريم

لا أعرف أين هو الآن. لكنني أعرف أنه كان طفلاً أيضاً. وأن الأطفال الذين يؤذون الأطفال الآخرين ليسوا أشراراً بطبيعتهم، بل يكونون في الغالب يُعيدون توزيع ألم لا يستطيعون حمله. أنا لا .أعذره. لكنني أفهمه الآن بطريقة لم أكن أملكها وأنا طفل

لكن الفهم هذا لا يمحو أثر الكتاب على الأرض. لا يمحو الضحكة التي سمعتها. لا يمحو اليد التي لم تمتد لتساعدك من بين عشرين طفلاً في الملعب.

بعض الأشياء تترك أثرها بغض النظر عمّن فعلها ولماذا.

* * *

يا مازن الصغير،

لم يكن صحيحاً أنك «مش زيهم». كنت مثلهم تماماً، طفل يحتاج ويلعب ويريد أن ينتمي. لكنك لم تتعلم كيف لأن أحداً لم يعلّمك في البيت، وحين ذهبت إلى المدرسة وجدت أن الدرس قد بدأ قبلك.

لم تكن غريباً. كنت متأخراً فقط. وليس ذنبك.

والكتاب الذي كنت تقرأه على تلك الدرجة، أياً كان، أتمنى أنه كان جيداً. لأنك كنت تستحق على الأقل نهاية جيدة لذلك اليوم

هناك جملة واحدة سمعتها أكثر من أي جملة أخرى في طفولتك.

جملة قالها أبوك. وأمّك. والمدرسون. والجيران. والعالم كله بطريقة ما. جملة تبدو عادية، تبدو حتى طيّبة النية، لكنها كانت في كل مرة

تُقال تعني شيئاً واحداً: ما تشعر به الآن غير مهم. اصبر. اصمت. انتظر.

«لما تكبر هتفهم»

وكبرتَ.

ولم تفهم. أو بالأصح، فهمت لكن الجرح لم يختفِ لمجرد أنك فهمت.

* * *

الجملة كانت تُقال في مناسبات كثيرة. حين سألت لماذا أبوك لا يأتي إلى حفلة المدرسة: «لما تكبر هتفهم.» حين بكيت ولم يسألك أحد لماذا: «لما تكبر هتفهم.» حين شعرت بشيء لا تعرف له اسماً وحاولت أن تصفه فقاطعوك: «لما تكبر هتفهم».

هذه الجملة، يا مازن، كانت تفعل شيئاً خطيراً بدون أن يقصد أحد. كانت تعلّمك أن مشاعرك مؤجّلة. أن ما تحسّ به الآن ليس له قيمة حتى يأتي يوم مجهول تصبح فيه «كبيراً» ويُسمح لك فيه بالفهم. وحين يتعلم طفل أن مشاعره مؤجّلة، يبدأ ببطء في نسيان أنه يشعر أصلاً.

* * *

كنت في الحادية عشرة. كان شهر امتحانات، والضغط في البيت مضاعف؛ أبوك خاسر في مشروع ما وكان يُعيد تفاصيله على أمك كل ليلة بصوت منخفض يصل إليك رغم الجدار. وأنت في نفس الوقت خائف من الامتحانات، وحيد في المدرسة، وتحمل ثقل البيت فوق ثقل كتبك.

جلست ذات مساء بجانب أمّك في الصالون وقلت بالطريقة التي تتكلم بها حين تريد أن تقول شيئاً مهماً لكنك لا تعرف كيف تبدأ: «ماما، أنا حاسس بـ...»

توقّفت. لأنك لم تعرف كيف تكمل. «حاسس بـ» ماذا؟ لم يكن عندك كلمات لما كنت تحسّ به. لم يعلّمك أحد أسماء هذه الأشياء.

نظرت إليك أمّك وهي مشغولة الذهن بشيء آخر، وقالت بنبرة ليست قاسية لكنها مُغلقة: «إيه؟ متضغطش على نفسك. ذاكر كويس وهيبقى كل حاجة تمام. لما تكبر هتفهم إن الحياة أصعب من كده بكتير».

ابتلعت ما كنت ستقوله. ابتلعته بهدوء تام، بالطريقة التي تعلّمتها. قلت «تمام» وأخذت كتبك وذهبت إلى غرفتك.

وفي غرفتك جلست على الأرض ولم تفتح الكتب. جلست فقط وأنت تحاول أن تتذكر ما كنت ستقوله. ولم تتذكر. لأنه لم يكن قد تشكّل أصلاً، كان مجرد شعور يحاول أن يصبح كلاماً، وحين لم يجد باباً، عاد إلى الداخل.

وأغلق الباب خلفه.

* * *

هذا ما لم يفهمه الكبار.

المشاعر التي لا تُقال لا تختفي. تذهب إلى مكان ما في الداخل وتجلس هناك. تتراكم بهدوء، طبقة فوق طبقة، شعور فوق شعور، سنة فوق سنة. تبدو أحياناً وكأنها اختفت، لأنك لا تشعر بها في كل لحظة. لكنها هناك، كالغبار الذي يتراكم في زاوية بعيدة، لا تراه حتى تُضيء النور فجأة.

وحين يُضاء النور، وهذا يحدث في لحظات غير متوقعة، انهيار صغير، كلمة تقولها ليلى، رائحة تذكرك بشيء قديم، حين يُضاء النور يجد مازن الكبير نفسه وسط ذلك الغبار المتراكم ولا يعرف من أين يبدأ التنظيف.

* * *

.صرت تكتم بشكل منهجي

ليس فقط الحزن، بل كل شيء. الفرح أيضاً كنت تكتمه، لأن إظهار الفرح يعني أن الناس يرون ما يسعدك، وما يسعدك يمكن أن يُؤخذ أو يُهزأ منه. الغضب كنت تكتمه حتى صار يتراكم في جسدك توتراً لا يجد مخرجاً. الخوف كنت تكتمه لأن الخوف في ذلك البيت وفي تلك المدرسة كان يعني الضعف، والضعف كان يعني المزيد من الأذى.

.فأغلقت كل شيء

وبنيت فوق كل هذا الإغلاق شخصية تعمل بشكل ممتاز. شخصية هادئة، مسيطرة، كافية. شخصية يراها الناس ويقولون: مازن بخير. مازن ناضج. مازن «ما بيضيعش وقته» في التفاصيل الصغيرة.

وأنا أسمعهم وأبتسم ولا أقول إن ما يسمّونه نضجاً هو في الأغلب خوف قديم يرتدي ملابس أنيقة.

*** * ***

الأسبوع الماضي كنت في اجتماع عمل. أحد الزملاء قال شيئاً غلطاً عن مشروع كنت أعمل عليه أشهراً، قاله أمام الجميع بثقة وكأنه

يعرف أكثر مني. شعرت بشيء يشتعل في صدري، شيء يريد أن يخرج.

لم يخرج.

ابتسمت وقلت: «ممكن نناقش التفاصيل بعد الاجتماع.» وانتهى الموضوع. وبعد الاجتماع لم أناقش شيئاً لأنني لا أعرف كيف أبدأ هذه المناقشات دون أن يخرج معها كل شيء آخر.

لأن الكبت لا يفرّق. حين تفتح صمام واحداً كل شيء يريد أن يخرج في نفس الوقت.

* * *

«لما تكبر هتفهم»

كبرت يا مازن. وفهمت أشياء كثيرة. فهمت لماذا كان أبوك غائباً، ولماذا كانت أمك تبكي، ولماذا كان كريم يؤذي من هم أصغر منه. فهمت أن الناس معظمهم يفعلون ما يعرفونه لا ما يجب فعله.

لكنني لم أفهم كيف أتكلم.

هذا ما لم يعلمني إياه أحد. لم ينتظره أحد أن يكبر حتى يُعلّمه. ظنّوا أن الفهم يأتي وحده. لكن الفهم وحده لا يكفي. الكلام يحتاج تمريناً، يحتاج مساحة، يحتاج أذناً سمعت قبل أن تطلب أن تتكلم.

وأنا لم أجد الأذن في الوقت الصحيح.

* * *

عزيزي الصغير،

ما تشعر به الآن، أياً كان، مهم. ليس لأنك ستفهمه كبيراً. بل لأنه حقيقي الآن. وما هو حقيقي الآن يستحق أن يُقال، حتى لو بكلمات غير مكتملة، حتى لو بجملة تقف في منتصفها.

«...أنا حاسس بـ»

أكمل الجملة. حتى لو لم تعرف ما بعد الـ. أكملها. لأن الجملة التي لا تكتمل لا تذهب إلى أي مكان، تبقى في الداخل وتكبر معك.

وأنا أعرف هذا لأنني ما زلت أحاول أن أكمل جملة بدأتها في الحادية عشرة من عمري وما زالت معلّقة في الهواء حتى الآن

دعني أحدثك عن الرجل الذي أصبحته.

من الخارج، يبدو مازن الكبير بخير. بخير جداً في الواقع. لو رآه أحد في الشارع أو في العمل أو في أي مكان يصنعه الناس فيه انطباعاتهم عن بعضهم، لقال: هذا رجل في محله. هذا رجل يعرف ما يريد.

وهذا صحيح جزئياً. أنا أعرف ما أريد في معظم الأشياء. أعرف القهوة التي أشربها وكيف أديرها اجتماعات وأي طريق أسلكه لتجنب الزحام. أعرف كيف أبدو كفؤاً، وكيف أبدو هادئاً، وكيف أقول الشيء الصحيح في الوقت الصحيح أمام الناس الصحيحين.

ما لا أعرفه هو كيف أكون بخير فعلاً لا مجرد بخير في الصورة.

* * *

حياتي من الخارج تبدو هكذا

شقة في الطابق الثالث، نظيفة ومرتبة لأن الفوضى تزعجني بطريقة غير منطقية.

عمل في شركة جيدة، مدير قسم، يحترمني من يعملون معي أو هكذا أظن.

سيارة رمادية لا تشغلني كثيراً طالما تسير.

ليلى، التي تحبني بطريقة لا أستطيع أن أشرح لماذا.

وأم أتصل بها مرة كل أسبوعين وتسألني «كويس؟» وأقول «كويس» وهذا كل شيء.

حياتي من الداخل تبدو هكذا

صعوبة في النوم منذ سنوات، لكنني لا أسميها أرقاً لأن الاسم يعني الاعتراف.

شعور متقطع بأن شيئاً ما ناقص لا أعرف ما هو.

إرهاق لا علاقة له بعدد ساعات النوم.

مسافة بيني وبين الناس لا أعرف كيف أقيسها لكنني أحسها دائماً.

ورسائل أكتبها لطفل لم يعد موجوداً.

* * *

أتذكر اليوم الذي حصلت فيه على الترقية. كانت ليلى سعيدة أكثر مني. احتضنتني وقالت بصوت فيه دفء حقيقي: أنا فخورة بيك

ثلاث كلمات لم يقلها لي أحد قبلها في حياتي.

كان يجب أن أشعر بشيء كبير. شعرت بشيء، لكنه لم يكن ما توقعته. كان شعوراً غريباً مركّباً، جزء منه فرح، وجزء منه شيء يشبه الحزن، وجزء ثالث لا أعرف له اسماً حتى الآن. كأن الكلمات الثلاث وصلت إلى مكان مهجور في الداخل وأضاءته فجأة، وحين يُضاء المهجور لا تشعر بالفرح دائماً. أحياناً تشعر بكل الوقت الذي مرّ وهو مظلم.

ابتسمت لليلى وقلت: شكراً وذهبنا نحتفل

وفي الليل، بعد أن نامت، جلست وحدي في المطبخ وأنا لا أعرف بالضبط ما الذي أشعر به.

* * *

مرة واحدة في حياتي حاولت أن أتكلم. كنت في الخامسة والعشرين، صديق جمعنا العمل وكان يبدو من النوع الذي يستطيع أن يسمع. جلسنا في مقهى بعد يوم طويل وبدأت بطريقة جانبية، كأنني أتكلم عن شخص آخر.

قلت: أحياناً الواحد بيحس إنه كبر بس جوّاه حاجات ما اتحلّتش

نظر إليّ لحظة ثم قال: آه والله، الضغط بيعمل كده. المهم تاخد إجازة وترتاح

قلت: أيوه صح وطلبنا كوباً آخر من القهوة وتكلّمنا عن كرة القدم.

لم أحاول مرة أخرى.

* * *

أنا لا أكره حياتي.

هذا مهم أن أقوله لأن من يقرأ ما أكتبه قد يظن ذلك. لكن الحقيقة أكثر تعقيداً من الكره أو الحب. الحقيقة أنني أعيش حياة يمكن أن

تكون جيدة جداً لو كنت أعرف كيف أسكنها بشكل كامل. لو كنت موجوداً فيها بكل ما أنا، لا بالجزء الذي تعلّمت أن أُظهره فقط.

المشكلة ليست الحياة. المشكلة أنني أسكن حياتي كأنني ضيف فيها، مؤدّب، لا يُحدث ضجيجاً، لا يضع أشياءه في كل مكان، لا يطلب أكثر مما يُقدَّم له.

وأنا تعبت من أن أكون ضيفاً في حياتي.

* * *

الليلة أمسك بهذا القلم وأكتب لك، وأنا أتساءل للمرة الأولى بصدق:
هل من الممكن أن يتغير شيء؟

ليس بالطريقة الكبيرة التي تحدث في الأفلام، حيث يصحو الإنسان ذات صباح ويكون شخصاً مختلفاً. بل بطريقة أصغر وأصعب. طريقة تبدأ ربما بأن يعترف إنسان لنفسه أن هناك شيئاً يجب أن يُقال، حتى لو لم يكن يعرف بعد كيف يقوله.

ربما تبدأ بهذه الرسائل.

ربما تبدأ بك أنت، يا من كنته ذات يوم، قبل أن يتعلم كيف يُغلق كل شيء.

* * *

عزيزي الصغير،

أنت كنت تحلم بأن تكبر. كنت تعتقد أن الكبر يعني الحرية، أن تكون أنت من يقرر، أن لا أحد يقول لك «لما تكبر هتفهم» بعد الآن. وكبرتُ. وأنا من يقرر الآن في معظم الأشياء. لكنني اكتشفت أن أخطر السجون هي تلك التي لا أبواب لها، لأنك لا تعرف من أين تخرج.

وسجني من هذا النوع. بنيته بنفسي، بيدَيَّ، جداراً جداراً، طوبة طوبة، منذ كنتَ أنت ولم أكن أنا بعد. وها أنا أقف في وسطه الآن وأحاول أن أتذكر لماذا بنيته أصلاً.

لأحمي نفسي. أعرف هذا.

لكن ما بُني للحماية يصبح أحياناً هو نفسه ما تحتاج الحماية منه

سأحدثك عن ليلى.

ليس لأنك ستعرفها يوماً، أنت صغير جداً وهي لم تأتِ إلى حياتي إلا بعد سنوات طويلة. لكنني أحدثك عنها لأنها الشخص الذي جعلني أرى نفسي أكثر من أي شخص آخر. وهذا أجمل ما يفعله الناس الحقيقيون أحياناً، يصبحون مرايا لا تكذب.

ليلى ليست مثالية. هذا أول ما سأقوله عنها لأن المثالية تُخيفني وكل ما يُخيفني أبتعد عنه تلقائياً. هي متقلّبة أحياناً، وتحكم على الأشياء بسرعة أحياناً أخرى، وعندها طريقة في الكلام حين تكون غاضبة تجعل كل جملة تبدو كأنها سؤال واتهام في نفس الوقت. لكنها صادقة. وهذا النوع من الصدق الذي لا يتجمّل، الذي يقول الأشياء كما هي حتى حين لا يريد أحد سماعها، هذا النوع نادر جداً.

* * *

قابلتها قبل ثلاث سنوات في ظرف عادي جداً. زميلة مشتركة، عشاء جماعي، طاولة طويلة وأشخاص كثيرون. كنت كالعادة في الطرف، أستمع أكثر مما أتكلم، أبتسم في الأوقات الصحيحة، أبدو حاضراً وأنا نصف غائب.

جلست ليلى في مواجهتي. لم تحاول أن تستقطب انتباه الطاولة كما يفعل بعض الناس، كانت تتكلم مع من بجانبها وتضحك بطريقة لا تعرف أنها جميلة، وأحياناً كانت تصمت وتنظر إلى طبقها وكأنها تفكر في شيء لا علاقة له بأي شيء من حولها.

هذا ما لفت انتباهي. الصمت داخل الضجيج. عرفته لأنني أعيش فيه.

* * *

في إحدى المرات الأولى التي قضيناها معاً، سألتني سؤالاً لم يسألني إياه أحد من قبل. لم يكن سؤالاً كبيراً فلسفياً، كان بسيطاً بشكل غريب». قالت: «إيه أكتر حاجة بتفرحك من غير ما تفكر فيها؟»

توقفت. لأن السؤال لم يكن عن الإنجازات أو الطموحات أو الخطط. كان عن شيء فوري وحقيقي. وأنا لم أكن معتاداً على هذا النوع من الأسئلة.

فكّرت فعلاً. وقلت في النهاية: رائحة المطر على الأسفلت

ابتسمت بطريقة تقول إنها تصدّق. لم تقل هيه؟ ولم تضحك. فقط قالت: عارف، ده زي لما الدنيا بتاخد نفس

لم أقل شيئاً. لكنني فكّرت أن هذه المرأة تعرف كيف تسمع.

* * *

أنا أحب ليلى.

قلت هذا وأنا أتفاجأ قليلاً بسهولته على الورق. لأنني لم أقله لها بهذا الوضوح من قبل. قلت أشياء تعني ذلك، أو هكذا أظن، لكن الجملة نفسها، ثلاث كلمات بسيطة، ظلّت دائماً عالقة في مكان ما بين صدري وفمي ولم تكمل الرحلة.

لأن قول «أنا أحبك» يعني أنك أعطيت شخصاً ما شيئاً ثميناً. وإعطاء الأشياء الثمينة يعني أنها يمكن أن تُؤخذ أو تُكسر أو تُردّ إليك وهي مختلفة عمّا أعطيت. وأنا خايف. هذا هو الاسم الحقيقي لما يحدث، خوف قديم يرتدي ملابس «التحفّظ» و«الاستقلالية» و«مش عارف أعبّر عن نفسي».

أنا خايف.

* * *

ليلى تعرف أن شيئاً ما ليس في مكانه. لا تعرف التفاصيل لأنني لم أعطِها التفاصيل. لكنها تحس، كما يحس الناس الذين يحبون بصدق أن هناك جزءاً من الشخص الذي أمامهم لا يصلون إليه مهما حاولوا.

تسألني أحياناً بطريقة غير مباشرة. «إيه اللي بتفكر فيه؟» أو «أنت تمام؟» بنبرة تعني أكثر من السؤال. وأنا أقول «تمام» وأبتسم وأغيّر الموضوع بمهارة تعلّمتها من سنوات التظاهر.

وهي تتركني. لا لأنها لا تكترث، بل لأنها تحترم ما تظنه حدوداً. لكنها لا تعرف أن ما تحترمه ليس حدوداً، بل جدران.

* * *

الأسبوع الماضي كان عندنا موقف صغير. شيء عادي، خلاف على خطة نهاية الأسبوع. لكنه تحوّل إلى شيء أكبر بطريقة لم أفهمها في اللحظة.

قالت بصوت هادئ لكن فيه شيء مشدود: مازن، أنا مش عارفة أوصلك. بحاول من زمان وحاسة إن في حاجة بتمنعني

وقفت أمام هذه الجملة ولم أعرف أين أضعها. شيء في داخلي أراد أن يقول: «أيوه، في حاجة، وأنا بحاول أفهمها أنا كمان.» لكن الجزء الآخر، الجزء الأقدم والأقوى، قال بهدوء: لو قلتها هتكون ضعيفاً. ولو كنت ضعيفاً ممكن تخسرها. ولو خسرتها.

لم أكمل الجملة في رأسي. لأن ما بعد «لو خسرتها» كان أكبر مما أستطيع أن أواجهه في تلك اللحظة.

قلت لها: أنا بحاول أكون موجود. بس أنا بطبعي مش كتير الكلام

نظرت إليّ لحظة، نظرة فيها حزن خفي ومحبة في نفس الوقت، وقالت: «أعرف. بس في فرق بين مش كتير الكلام وبين مش موجود».

ثم أخذت شنطتها وقالت إنها ستمشي وإنها ستتصل بي لاحقاً. وخرجت.

وجلست وحدي وهذه الجملة تدور في رأسي: في فرق بين مش كتير الكلام وبين مش موجود

*** * ***

هي محقة.

هذا ما لم أستطع أن أقوله لها في تلك اللحظة. هي محقة وأنا أعرف ذلك. أنا أحضر بجسدي وأغيب بكل ما عداه. أجلس بجانبها وأفكر في شيء آخر أو في لا شيء. أسمع كلامها وأردّ بالكلمات الصحيحة لكنني لا أكون هناك فعلاً، لا بالطريقة التي تستحقها.

لأن الحضور الكامل يعني أن أكون مرئياً. وأن أكون مرئياً يعني أن يرى أحد ما بالداخل. وما بالداخل... لم أعتد أن يراه أحد. لم أتعلّم كيف يُرى بأمان.

* * *

عزيزي الصغير، أريد أن أقول لك شيئاً عن ليلى قد لا تفهمه الآن لكنه مهم.

الناس الذين يحبوننا لا يحبوننا رغم كسرنا. يحبوننا ومعهم كسرنا. والفرق بين الاثنين ليس في طبيعة حبهم، بل في قدرتنا نحن على تصديق أنهم يرون الكسر ويبقون.

ليلى ترى شيئاً. لا تعرف تفاصيله لكنها تراه. وهي لا تزال هنا.

والسؤال الذي يؤرقني كل ليلة ليس «هل تحبني؟» لأنني أعرف الإجابة. السؤال هو: هل أستطيع أن أصدّق أنها تحبني حتى لو رأت كل شيء؟

وهذا سؤال لا تجيب عنه ليلى. يجيب عنه أنت، يا من كنته. أو بالأصح، يجيب عنه ما تعلّمته أنت عن نفسك في تلك الأيام.

وتلك الأيام لم تكن لطيفة معك

.حدث شيء الأسبوع الماضي لم أكن أنتظره

.انفجرت

ليس بالطريقة الدرامية التي تحدث في الأفلام، حيث يصرخ الإنسان ويكسر شيئاً ويبكي وينتهي كل شيء. بل بطريقة أهدأ في الظاهر وأشد عنفاً في الداخل. طريقة رأيت فيها نفسي من الخارج لأول مرة .وأنا أتصرف كأنني لا أعرفه

كنا أنا وليلى في شقتي. كان يوماً عادياً، عشاء، تلفزيون، حديث خفيف عن لا شيء مهم. ثم قالت شيئاً، شيئاً صغيراً جداً في الواقع، قالت بنبرة عابرة: أنت بتتجنب الكلام عن أي حاجة جدية، لاحظت ده من زمان

لم تكن تهاجمني. كانت تلاحظ فقط. لكن شيئاً في تلك الملاحظة، ربما لأنها كانت صحيحة، ربما لأن الصحيح دائماً يجد المكان .المكشوف، شيئاً ما أشعل شيئاً آخر

*** * ***

قلت بصوت أهدأ مما كنت أشعر به: يمكن لأن مش كل حاجة محتاجة تتقال

قالت: أو يمكن لأنك مش عارف تقول

.وقفت الجملة في الهواء بيننا

شيء في داخلي تحرّك. شيء قديم، ثقيل، كان نائماً تحت طبقات كثيرة من الهدوء المصطنع. أحسست به يتحرك كما يتحرك شيء كبير حين يستيقظ ببطء ولا يعرف بعد أين هو.

قلت، وصوتي لا يزال هادئاً لكن بهدوء مختلف، هدوء مشدود كحبل قبل أن ينقطع: أنا بعرف أقول. بس بختار إمتى وأمام مين

قالت: وأنا مش من الناس دول؟

.صمتُّ

.وفي صمتي انفجر شيء لم أعطِه اسماً بعد

* * *

لم أصرخ. لم أكسر شيئاً. لكنني قلت أشياء بنبرة باردة قاطعة كانت أشد إيلاماً من الصراخ. قلت إنني تعبت من الأسئلة. إنني تعبت من

الشعور بأنني في امتحان مستمر. إنني لا أعرف لماذا كل شيء يجب أن يُقال بالكلام وإن بعض الناس هكذا وإن من لا يعجبه هذا فله خياراته.

توقّفت.

نظرت إلى وجه ليلى. فيه شيء لم أرَه من قبل. ليس غضباً. شيء أشبه بالحزن الهادئ الذي يعرف أنه لا فائدة من الجدال.

قالت بصوت منخفض جداً: أنا مش بسألك علشان أحكم عليك. بسألك علشان بحبك وعايزة أفهم

ثم أخذت حقيبتها وخرجت.

وجلست وحدي في الشقة الساكنة وأنا أحاول أن أتنفس بشكل طبيعي.

* * *

بعدها بساعة، جلست على الأرض كعادتي وأسندت ظهري إلى الأريكة. لم أفتح التلفزيون. لم أمسك الهاتف. جلست فقط في الصمت وحاولت أن أفهم ما الذي حدث.

لأن ما حدث لم يكن عن ليلى. هذا ما أدركته ببطء. لم يكن عن سؤالها ولا عن ملاحظتها. كان عن شيء أقدم بكثير. كان غضباً لم يجد يوماً مكاناً يخرج منه فظل يتراكم، سنة فوق سنة، صمت فوق صمت، جملة ابتُلعت فوق جملة ابتُلعت.

وليلى في تلك اللحظة، بملاحظة بسيطة صادقة، فتحت صمام شيء لم أكن أعرف أنه كان على وشك الانفجار.

وأنا أخطأت في حقها. هذا أيضاً أدركته ببطء.

* * *

الغضب، يا مازن، شيء لم يُسمح لك به في طفولتك.

الحزن كان مقبولاً أحياناً، بصمت وبسرعة وبدون إزعاج. الخوف كان مقبولاً طالما لا يُرى. لكن الغضب لم يكن له مكان. الغضب كان يعني المشكلة، يعني أن تُضاف إلى ثقل البيت ثقل آخر، يعني أن تكون سبباً للتعب لا مجرد متعب.

فتعلّمت أن تُخبّئه.

لكن الغضب المخبّأ لا يختفي. يتحوّل. يصبح برودة، أو صمتاً، أو كلاماً هادئاً بنبرة قاطعة لا تقل إيلاماً عن الصراخ. يصبح المسافة التي تضعها بين نفسك والآخرين دون أن تعرف لماذا. يصبح الباب الذي تُغلقه قبل أن يصله أحد.

وفي تلك الليلة مع ليلى، رأيت الغضب لأول مرة بوضوح. رأيته يخرج ويُؤذي شخصاً لا تريد أن تؤذيه. ورأيته يحمل في طياته كل شيء لم يُقَل لأبٍ غائب، ولأمٍّ تبكي خلف باب مغلق، ولمدرسة لم تسأل، ولعالم علّمك أن تكون هادئاً دائماً مهما حدث.

* * *

اتصلت بليلى في الليل.

ردّت بعد رنّتين. صوتها كان هادئاً، ليس بارداً، لكن هادئاً بطريقة الشخص الذي يحمي نفسه.

قلت: أنا آسف

قالت: أعرف

صمت قصير. ثم قلت شيئاً لم أكن أخطط لقوله: أنا مش بتجنب الكلام. أنا خايف منه

لم تقل شيئاً فوراً. ثم قالت بصوت أكثر دفئاً: شكراً إنك قلت ده

.ثم قالت إنها تعبانة وإنها ستنام وإننا سنتكلم غداً. وأغلقنا الخط

وجلست وأنا أُدرك أنني قلت «أنا خايف» لشخص آخر لأول مرة في .حياتي

.وأن السماء لم تقع

* * *

عزيزي الصغير،

الغضب ليس عدوّك. أعرف أنك تعلّمت العكس. لكن الغضب في .حقيقته ليس إلا شيئاً يقول: هذا مهم. هذا يستحق. أنا أستحق

المشكلة ليست الغضب. المشكلة أننا حين نُمنع من الغضب في الأوقات الصحيحة، يخرج في الأوقات الخطأ، على الناس الخطأ، .بطرق لا تشبه ما كنا نريد أن نقوله أصلاً

أنت كنت طفلاً يحق له أن يغضب. من الغياب، من الصمت، من الكتاب على الأرض، من عشرين طفلاً لم يتحرك أحدهم. كان يحق لك.

لم يقل لك أحد هذا. فأقوله أنا الآن، متأخراً، لكن أفضل من ألا يُقال.

كان يحق لك أن تغضب

هناك أشياء صنعتها على مدار السنوات ظننت أنها تجعلني أفضل. أو على الأقل ظننت أنها تجعلني أنسى.

أسمّيها الآن بأسمائها لأن التسمية خطوة، وأنا في حاجة إلى كل خطوة أستطيع أن أخطوها.

* * *

الشغل كان أول الهروب وأنجحه.

حين تشغل نفسك بما يكفي، لا يبقى وقت للتفكير. الاجتماعات والمهام والمواعيد والمشاريع تملأ اليوم من أوله لآخره، وحين تنتهي تكون متعباً بما يكفي لتنام بدون أن يُزعجك ما بالداخل كثيراً. هذه ليست إنتاجية. هذا تخدير منظّم.

كنت أصل إلى العمل قبل الجميع وأغادر بعدهم. كنت أتطوع للمشاريع الإضافية ليس لأنني طموح، بل لأن الفراغ كان يُخيفني. الفراغ يعني التفكير، والتفكير يعني أن تسمع ما لا تريد سماعه من نفسك.

مديري مرة قال إنني «أعطى من نفسه أكثر مما يجب.» قالها بنبرة المديح. وأنا ابتسمت وشكرته ولم أقل إن ما يسمّيه عطاءً أسمّيه هرباً.

* * *

الهروب الثاني كان الناس، بطريقة مقلوبة.

ليس بأن أكون مع الناس، بل بأن أكون في حضورهم دون أن أكون معهم فعلاً. حفلات، تجمعات، خروجات. أكون هناك، أتكلم، أضحك في الأوقات الصحيحة، وأعود إلى البيت وأنا أكثر وحدة مما كنت قبل أن أذهب. لأن الوحدة وسط الناس أثقل بكثير من الوحدة في غرفة فارغة. الغرفة الفارغة على الأقل صادقة.

توقفت عن هذا النوع من الخروجات منذ سنتين تقريباً. لم يلاحظ أحد بشكل خاص. أو لاحظوا وقرروا ألا يسألوا. وكلا الاحتمالين يقول شيئاً.

* * *

قبل ثلاث سنوات، قبل ليلى، مررت بفترة كنت فيها أشتري أشياء لا أحتاجها. كتباً لم أقرأها، ملابس لم أرتدها، أدوات لمشاريع لم أبدأها. كنت أفتح المتاجر الإلكترونية في الليل وأتصفّح وأضع أشياء في السلة وأحياناً أشتريها وأحياناً أغلق الصفحة.

لم أفهم وقتها ما الذي كنت أفعله. فهمت لاحقاً أنني كنت أحاول أن أملأ شيئاً. أن أعطي لذلك الثقب الداخلي شيئاً ملموساً يسكنه ولو لساعات.

لم ينجح. الأشياء تملأ الأرفف لا الثقوب.

* * *

لكن أخطر هروب كان من نوع مختلف.

كان الهروب داخل الهروب. حين بدأت أُقنع نفسي بأن هذا هو أنا. أن البرود طبيعتي. أن الصمت شخصيتي. أن عدم الاحتياج قوّتي. بنيت حول كل آلية دفاع تعلّمتها في الطفولة قصة تجعلها تبدو اختياراً لا اضطراراً.

.أنا شخص مستقل بدل: أنا شخص خايف من الاتكاء

أنا مش بحب الضجيج بدل: أنا لا أعرف كيف أكون وسط الناس
.بشكل مريح

.أنا بختار كلامي بدل: أنا خايف من كلامي

وحين تؤمن بالقصة كفاية، تنسى أنها قصة. تصبح هويتك. وهنا يصبح الهروب كاملاً، لأنك لم تعد تهرب من شيء، أنت فقط هكذا

* * *

.الشيء الذي كسر هذا كله لم يكن لحظة كبيرة

.كان صورة

رأيت صورة قديمة لي وأنا في الثامنة من عمري. كانت في هاتف أمي حين زرتها منذ أشهر، أخرجته وأرتني صور قديمة بطريقة الأمهات حين يشتقن إلى شيء لا يعرفن كيف يقولنه. توقّفت عند
.تلك الصورة

كان الطفل في الصورة يبتسم. لكن عينيه لم تكونا تبتسمان. كانتا تنظران إلى الكاميرا بشيء لا أستطيع وصفه إلا بأنه يقظة حذرة، كأنه لم يكن يرتاح تماماً حتى وهو يبتسم.

نظرت إلى الصورة وأنا أُدرك أنني لا أزال أفعل هذا. أبتسم بفمي وعيناي في مكان آخر. لا أزال ذلك الطفل الحذر يقظ حتى في لحظات الراحة.

أعدت الهاتف لأمي وقلت: «صورة حلوة.» وغيّرنا الموضوع.

لكنني حملت الصورة معي في رأسي حتى الآن.

* * *

بعد ليلة الغضب مع ليلى، وبعد أن قلت لها «أنا خايف» وأغلقنا الخط، جلست وحدي وسألت نفسي سؤالاً لم أسأله من قبل بهذا الوضوح.

من أنا بدون الجدران؟

ليس من أريد أن أكون. من أنا فعلاً، تحت كل هذا؟ تحت الهدوء المصطنع والاستقلالية المبنية على الخوف والكلام المختار بعناية شديدة؟

لم أجد إجابة جاهزة. لكن السؤال نفسه كان مختلفاً. لأنني لأول مرة لم أُقنع نفسي بأن الجدران هي أنا. اعترفت، ولو لنفسي فقط، أنها جدران. وأن جدراناً ببابها لا تحتاج أن تُهدم، تحتاج فقط أن يُفتح بابها.

*** * ***

عزيزي الصغير،

الهروب مفهوم. أريدك أن تعرف هذا. الطفل الذي يهرب ليس جباناً. هو ذكي. يهرب لأن ما أمامه أكبر مما يملك أدوات لمواجهته. الهروب في طفولتك كان بقاء، كان الطريقة الوحيدة التي عرفتها لتظل واقفاً.

لكن ما نجح في الثامنة لا يصلح في الرابعة والثلاثين. وما كان حمايةً يصبح سجناً حين يكبر صاحبه ولا يكبر معه.

أنا لا أزال أتعلم كيف أتوقف عن الهروب. لا أعرف إن كنت سأنجح. لكنني للمرة الأولى أرى الهروب بوضوح، وأسمّيه باسمه، وهذا وحده يختلف.

لأن ما لا تراه لا تستطيع أن تختاره أو ترفضه. وأنا بدأت أرى

ذهبت لرؤيته الأسبوع الماضي.

لم أكن أخطط. كنت في الطريق إلى أمي كالمعتاد، زيارة الشهر، ساعة وربما أقل، أجلس وأشرب الشاي وأتحدث بما لا يحتاج كثير كلام. لكن حين وصلت إلى الشارع رأيته يخرج من البناية وحده، يمشي ببطء أكثر مما أتذكر، ظهره أكثر انحناءً مما كان.

وقفت في مكاني.

لم يرني. مشى في الاتجاه الآخر وأنا واقف أنظر إلى ظهره، إلى تلك القامة التي كانت يوماً تعني الكثير في خيالي الطفولي، تعني الحضور أو غيابه، تعني الأمان أو برودته، وأراها الآن مجرد رجل عجوز يمشي في شارع عادي.

شيء في صدري تحرّك. لم أعرف اسمه وقتها.

* * *

أبي لم يكن رجلاً سعيداً.

هذا أول شيء أدركته حين كبرت وبدأت أرى ما وراء الصورة التي رسمتها له في طفولتي. الطفل يرى الأب كما يحتاج أن يراه، كبيراً وقوياً ومسؤولاً. وحين لا يكون هذا، يتساءل الطفل لماذا هو ليس كافياً ليجعل أباه كذلك.

لكن الحقيقة كانت أبسط وأحزن. أبي كان رجلاً تعباً. رجلاً حمل أشياء لم يختر أغلبها ولم يُعطَ أدوات لحملها. جاء من بيت فيه صمت آخر، وأب آخر غائب بطريقة أخرى. وكبر وفعل ما يفعله كثير من الناس، أعاد ما تعلّمه بدون أن يعرف أنه يُعيده.

هذا لا يمحو ما فعله. لكنه يضعه في إطار أوسع. إطار فيه حزن بدل غضب فقط.

* * *

مرة واحدة في طفولتي رأيت أبي يبكي. كنت في الثالثة عشرة، وكان يجلس في المطبخ وحده بعد منتصف الليل، ظهره إليّ، يده على الطاولة وكوب بارد أمامه. لم يكن يعرف أنني قمت لأشرب الماء.

وقفت عند باب المطبخ لثانية واحدة. رأيت كتفيه يرتجفان بشكل خفي. سمعت صوتاً لم أسمعه منه من قبل، صوتاً مكبوتاً يحاول ألا يكون صوتاً.

عدت إلى غرفتي بهدوء شديد. لم أشرب الماء. ولم أقل لأحد ما رأيت. لا في اليوم التالي ولا بعده.

لكن الصورة ظلّت. رجل وحيد في مطبخ مضاء، يبكي بطريقة تعلّمها من لا يريد أن يُرى يبكي.

مثلي تماماً تحت الماء في الحمام بعد وفاة جدّتي.

* * *

هذا ما صدمني أكثر من أي شيء آخر حين كبرت.

ليس أنه آذاني بغيابه. بل أنني أصبحت مثله بالضبط في الأشياء التي لم أرِدها. أبكي وحدي في أماكن لا يراني فيها أحد. أحمل الأشياء الثقيلة بصمت. أكون موجوداً وغائباً في نفس الوقت. أضع مسافة بيني وبين من يحبني دون أن أعرف كيف أُغلّقها.

نحن لا نرث عيون آبائنا فقط. نرث طرق حملهم للألم أيضاً. ونُعيد ما تعلّمناه حتى لو أقسمنا ألا نفعله.

هذا ليس قدراً. لكنه حقيقي.

* * *

اتصلت به في المساء. لم أفعل هذا من تلقاء نفسي منذ سنوات. كنت أتصل بأمي وهي تنقل السلام. هذه المرة اتصلت به مباشرة.

ردّ بعد رنّتين. صوته كان مفاجئاً لي، أكبر مما تخيّلت، أخشن قليلاً، وفيه شيء يشبه التردد حين رأى اسمي على الشاشة.

قال: مازن؟

قلت: أيوه أنا. عامل إيه؟

صمت قصير. ثم قال: تمام. إنت؟

قلت: تمام

وتكلّمنا دقيقتين عن لا شيء. عن الطقس وعن شيء سمعه في الأخبار وعن سؤال عابر عن العمل. لم نقل شيئاً حقيقياً. لكنني اتصلت. وهو ردّ. وكلانا قال «تمام» ونحن نعرف أن «تمام» تعني أشياء كثيرة لا نعرف كيف نقولها.

وحين أغلقت الخط جلست لفترة طويلة لا أفعل شيئاً.

* * *

لن أقول إنني سامحته. لأن المسامحة كلمة كبيرة وأنا لم أصل إليها بعد ولا أعرف إن كنت سأصل. المسامحة ليست قراراً يُتّخذ في ليلة، هي شيء يحدث ببطء أو لا يحدث، وكلا الاحتمالين مقبول.

لكن شيئاً تغيّر في تلك الليلة. شيء أصغر من المسامحة وربما أهم منها في هذه اللحظة. بدأت أرى أبي إنساناً. ليس أباً مثالياً فشل، ولا وحشاً يستحق كل الغضب. إنساناً ناقصاً تماماً كما أنا ناقص. حمل ما لم يعرف كيف يحمله وأسقط ما لم يقصد إسقاطه في الغالب.

وهذا لا يعني أن الجرح لم يكن جرحاً. يعني فقط أن من أوجعني لم يكن يملك ما يعطيه لأنه هو أيضاً لم يتلقَّه.

سلسلة حزن طويلة تمتد للخلف أبعد مما أستطيع أن أرى.

* * *

عزيزي الصغير،

أبوك لم يكن عدوّك. لم يكن بطلك أيضاً. كان إنساناً وصل إلى الأبوّة .وهو لا يزال يحاول أن يفهم نفسه، ولم ينجح في الاثنين معاً

أعرف أنك كنت تنتظر منه شيئاً لم يأتِ. وأعرف أن الانتظار طال حتى توقّفت عن الانتظار دون أن تعرف متى توقّفت. وأعرف أن بعض الجروح لا تُشفى بفهم من أحدثها. تُشفى بطريقة مختلفة .وأبطأ، من الداخل، بهدوء، كما تلتئم الأشياء التي تُترك في سلام

لكنني أريدك أن تعرف شيئاً واحداً: أنت لم تكن سبب غيابه. لم تكن ناقصاً. لم تكن ثقيلاً. كنت طفلاً يستحق أباً حاضراً. وعدم حضوره .كان فقره هو، لا فقرك أنت

وأنا، مازن الكبير، الذي يجلس الآن ويكتب هذا بيد تكاد ترتجف، أحاول أن أصدّق هذا بما يكفي لأتوقف عن معاقبة نفسي على جريمة لم أرتكبها

المرايا لا تكذب. هذا ما يقوله الناس. لكن المرايا لا تُظهر إلا ما تقف أمامها. والمشكلة أن أغلبنا يتعلّم كيف يقف أمام المرايا بطريقة معينة، كيف يُعدّل الزاوية، كيف يختار الإضاءة، كيف لا يرى ما لا .يريد رؤيته

.أنا تعلّمت هذا مبكراً جداً

لكن في الأسابيع الأخيرة، منذ بدأت هذه الرسائل، منذ الغضب مع ليلى، منذ المكالمة مع أبي، منذ الصورة القديمة بعينين لا تبتسمان، .بدأت أقف أمام المرايا بشكل مختلف. بدأت أرى

وما رأيته لم يكن سهلاً. لكنه كان حقيقياً. وللمرة الأولى، الحقيقي لم .يُخفني بما يكفي لأهرب منه

* * *

رأيت رجلاً يحب ولا يعرف كيف يستقبل الحب. يعطي بحساب لأن العطاء بلا حساب يعني التعرّض، والتعرّض يعني الأذى المحتمل. يريد القرب ويصنع المسافة في نفس الوقت، ثم يتساءل لماذا يشعر .بالوحدة

رأيت رجلاً يُتقن الحضور الناقص. يجلس في الغرفة ويكون في مكان آخر. يسمع الكلام ولا يسمع ما وراءه. يُجيب بالصحيح ولا .يقول الحقيقي

رأيت رجلاً خائفاً جداً من أن يُخذل حتى أنه يُخذل نفسه أولاً، قبل أن .يصل أحد إلى هذا الدور

رأيت كل هذا وقلت لنفسي: هذا أنا. ليس هذا ما آلت إليه الظروف. هذا أنا الذي صنعته الظروف وأصبحت مسؤولاً عنه الآن.

* * *

ليلى مرآة من نوع خاص.

ليس لأنها تُخبرني بما أريد سماعه، بل لأنها أحياناً تُخبرني بما لا أريد. تقول الأشياء كما تراها، بدون تجميل ودون قسوة، بتلك الطريقة النادرة التي تعني: أنا أرى ما تحاول أن تخفيه وأنا هنا على أي حال.

بعد ليلة الغضب، حين التقينا في اليوم التالي، لم تبدأ بعتاب ولم تبدأ بتطمين. جلست أمامي وقالت: أنا مش بطلب منك إنك تبقى إنسان تاني. بطلب منك إنك تكون إنت، بس بالكامل

بالكامل كلمة صغيرة تحمل أشياء كثيرة. بالكامل يعني مع الكسر أيضاً. مع ما لا يُقال. مع ما يظهر في لحظات الغضب ويختبئ في لحظات الهدوء.

لم أقل شيئاً. لكنني كنت لأول مرة صامتاً لأنني أفكر، لا لأنني أهرب.

* * *

.المرايا الأخرى كانت أصعب

مرآة العمل: رأيت رجلاً يُتقن عمله لكنه يضع في العمل ما يجب أن يضعه في حياته. رأيت كفاءة تُخبّئ فراغاً. رأيت إنجازات تملأ جدولاً .لا روحاً

مرآة الأصدقاء القلائل الذين أملكهم: رأيت علاقات قائمة على السطح المريح. نتكلم في كل شيء ولا نتكلم في شيء حقيقي. نضحك معاً ونفترق وأنا لا أعرف إن كانوا يعرفونني فعلاً أو .يعرفون الشخصية التي أُظهرها

مرآة الليل: رأيت رجلاً يخاف الصمت لأن الصمت يتكلم. يُشغّل شيئاً دائماً، موسيقى أو صوت تلفزيون في الغرفة التانية أو أي ضجيج .يملأ المسافة بين الجدران وأفكاره

* * *

في إحدى الليالي جلست في صمت كامل مقصود. أغلقت كل شيء .وجلست فقط. خمس دقائق كانت خطتي

بعد دقيقتين بدأت أفكر في العمل. بعد ثلاث دقائق بدأت أفكر في ليلى وما إذا كنت سأُخذلها في النهاية. بعد أربع دقائق بدأت أفكر في أبي وتلك المكالمة وما لم يُقَل فيها. وقبل أن تنتهي الدقيقة الخامسة فتحت الموسيقى.

ثم أغلقتها.

وجلست في الصمت حتى الدقيقة العاشرة. لم يكن مريحاً. لكنني لم أمت. والأفكار التي خرجت لم تكن وحوشاً، كانت فقط أشياء تنتظر أن تُسمع.

ربما الصمت لم يكن العدو. ربما كان الخوف من ما يقوله.

* * *

الشيء الذي أدركته في الأسابيع الأخيرة هو هذا

أنا لم أكن أهرب من الماضي فقط. كنت أهرب من نفسي في الحاضر. لأن نفسي في الحاضر تحمل آثار الماضي، وهذه الآثار كانت تبدو أثقل من أن أحملها بشكل مباشر. فكان أسهل أن أضع فوقها طبقة من الانشغال، طبقة من التظاهر، طبقة من القصص التي تُقنعني بأنني بخير.

لكن الطبقات لا تُلغي ما تحتها. تُأجّله فقط.

والآن، وأنا أقف أمام المرايا التي لم أقف أمامها من قبل بهذه الطريقة، أرى الطبقات وأرى ما تحتها. وما تحتها ليس وحشاً. هو فقط رجل كان طفلاً لم يُحضن بما يكفي، وكبر وحمل هذا النقص معه دون أن يعرف كيف يضعه.

وأنا الآن أضعه. ببطء. وبخوف. لكنني أضعه.

* * *

ليلى سألتني أمس: حاسس بإيه دلوقتي؟

السؤال نفسه الذي كنت أُجيب عنه بـ«تمام» أو بابتسامة أو بتغيير الموضوع.

هذه المرة توقّفت. فكّرت فعلاً. ثم قلت بصوت أهدأ مما توقّعت: حاسس إن في حاجة بتتحرك جوّايا. مش عارف إيه بالظبط. بس بتتحرك

نظرت إليّ بتلك النظرة التي تعرفها. ثم قالت: ده كافي

وللمرة الأولى منذ زمن طويل، صدّقت أن شيئاً صغيراً يمكن أن يكون كافياً.

* * *

عزيزي الصغير،

المرايا ليست عدوّك. أعرف أنك تعلّمت تجنّبها، تجنّب كل ما يُظهر لك ما لا تريد رؤيته. لكن المرايا الحقيقية، سواء كانت أشخاصاً أو لحظات صمت أو رسائل تكتبها لنفسك في منتصف الليل، هي الطريقة الوحيدة لأن ترى أين أنت فعلاً.

وأن ترى أين أنت هو أول خطوة في أي طريق.

لا تعرف بعد أين الطريق يذهب. لكنك تقف الآن في نقطة تعرف فيها موقفك. وهذا لم يكن صحيحاً من قبل.

وهذا، على بساطته، يختلف

حاولت أن أكتب هذه الرسالة ثلاث مرات.

المرة الأولى بدأت هكذا

عزيزي الصغير، أريد أن أقول لك إن كل شيء سيكون بخير. إن الجروح ستلتئم وإن الحياة ستصبح أسهل وإن

توقّفت.

لأنني لا أعرف إن كان هذا صحيحاً. ولأنني طوال هذه الرسائل حاولت ألا أكذب. وهذا الكلام يبدو كذباً لطيفاً، النوع الذي يُقال لإنهاء المحادثة لا لأنه حقيقي.

فمزّقت الورقة وبدأت من جديد.

* * *

المرة الثانية بدأت هكذا

عزيزي الصغير، أريد أن أطلب منك المسامحة. أنا الكبير الذي أصبحته لم يُكمل ما كان يجب أن يُكمله. لم يتعلم كيف يُحب بشكل كامل ولم يتعلم كيف يكون حاضراً ولم يتعلم

توقّفت أيضاً.

لأن طلب المسامحة من نفسك يبدو أسهل مما هو عليه. جلست أمام الجملة وأدركت أنني لا أعرف حتى كيف أُقدّم هذا الطلب. من يسامح من؟ أنا الكبير أطلب من الطفل أن يسامحني على ما أصبحت؟ أم الطفل يطلب من الكبير أن يفهم لماذا بدأ كل شيء؟

المسامحة بين نسختين من نفس الشخص شيء لم أقرأ عنه في أي كتاب. لا أعرف كيف تعمل.

فتركت الورقة الثانية ناقصة وبدأت ثالثة.

* * *

المرة الثالثة جلست أمام الورقة البيضاء دون أن أكتب شيئاً.

جلست فقط.

والورقة البيضاء جلست أمامي.

وبعد وقت لا أعرف كم كان، بدأت أفهم شيئاً. أن الرسالة التي لا تكتمل ليست فشلاً. ربما هي صادقة أكثر من الرسائل التي تكتمل. لأن بعض الأشياء لا تكتمل لأنها حيّة، ولأن الأشياء الحيّة لا تنتهي بنقطة في آخر جملة.

ففعلت شيئاً لم أفعله من قبل.

كتبت ما يأتي.

* * *

عزيزي الصغير،

لا أعرف كيف أنهي هذه الرسائل.

جلست أمام الورقة مرات وكتبت جملاً ومزّقتها لأنها لم تكن صحيحة. الجملة الصحيحة هي التي لا تكذب ولا تتجمّل ولا تعطي وعوداً لا أملكها. وإيجاد هذه الجملة أصعب مما توقّعت.

لكن ربما هذا هو بالضبط ما يجب أن أقوله.

أنا لا أعرف.

* * *

لا أعرف إن كانت هذه الرسائل ستُغيّر شيئاً. لا أعرف إن كان الطفل الذي كنته يسمع أو يفهم أو يهتم. لا أعرف إن كانت الجروح التي كتبت عنها قابلة للشفاء التام أو إن كانت ستبقى ندوباً إلى الأبد، والندوب ليست نهاية العالم لكنها موجودة.

لا أعرف إن كنت سأتعلم كيف أُحضن ليلى بالكامل أو إن كنت سأظل أسحب يدي قبل أن يمسك بها أحد. لا أعرف إن كنت سأكون يوماً قادراً على قول «أنا أحبك» بالوضوح الذي تستحقه. لا أعرف إن كانت المكالمة مع أبي ستتكرر وإن كانت ستكون يوماً أطول من دقيقتين.

لا أعرف الكثير.

* * *

ما أعرفه هو هذا

أعرف أنني كتبت هذه الرسائل. وأن الكتابة نفسها كانت شيئاً. ليست علاجاً وليست معجزة، لكنها كانت اعترافاً. والاعتراف لنفسك هو أصعب اعتراف على الإطلاق، أصعب من الاعتراف لأي شخص آخر، لأنك لا تستطيع أن تخدع نفسك حين تكتب لها مباشرة.

أعرف أن هناك طفلاً كان يجلس على درجة حجرية في ملعب مدرسة ويقرأ كتاباً لأنه لم يجد مكاناً آخر يضع نفسه فيه. وأن هذا الطفل لم يُخطئ. وأن ما حدث له لم يكن بسببه.

أعرف أن جدّتي كانت تفتح الباب قبل أن أطرق. وأن هذا كان حقيقياً. وأن الأشياء الحقيقية لا تُمحى حتى حين تنتهي.

أعرف أن ليلى موجودة. وأن وجودها ليس حظاً مجرداً، هو أيضاً شيء أنا فعلته، قررت ألا أطرد هذا الشيء الجيد قبل أن يبدأ، وهذا بحد ذاته لم يكن سهلاً بالنسبة لي.

وأعرف أنني الليلة لم أفتح الموسيقى. جلست في الصمت وسمعت الأفكار وبقيت.

* * *

قبل أن أبدأ هذه الرسائل بأسابيع، كنت جالساً في شقتي في إحدى الليالي ولا أعرف بالضبط ما الذي أشعر به. لم يكن الألم الحاد، لم يكن البكاء، لم يكن شيئاً يمكن تسميته بسهولة. كان إحساساً بأن شيئاً ما خارج مكانه ولم أستطع أن أحدد ما هو ولا أين مكانه الصحيح.

جلست ومددت يدي إلى الورق الذي كان على الطاولة وكتبت بدون تفكير: عزيزي الصغير

.ثم توقّفت

.ثم أكملت

لم أكن أعرف أنني بدأت شيئاً. ظننت أنها ورقة واحدة ستنتهي وأنسى. لكنها لم تنته. لأن بعض الأشياء حين تبدأ تجد أنها كانت تنتظر منذ زمن طويل أن تبدأ.

* * *

.هذه الرسالة لن تكتمل

ليس لأنني عجزت. بل لأنني أدركت أن ما أريد قوله لك لا ينتهي بجملة. أنت لست شيئاً في الماضي انتهى. أنت جزء مني لا يزال موجوداً، يظهر في لحظات لم أتوقعها، في غضب مفاجئ، في سحب يد، في صمت وسط حديث، في يقظة عيون لا تبتسم رغم ابتسامة الفم.

أنت لم تذهب. أنت هنا معي. وأنا بدأت أتعلم كيف أحمل هذا بطريقة مختلفة. ليس بأن أُخبّئك، وليس بأن أتظاهر أنك لست موجوداً. بل بأن أعترف بوجودك. بأن أقول: هناك طفل جوّايا لم يأخذ ما يستحق. وأنا الآن أحاول أن أُعطيه ما أستطيع.

ببطء. بأخطاء. بتراجعات وبدايات جديدة.

لكنني أحاول. وهذا شيء لم أقله من قبل

أريد أن أحدثك عن شيء حدث البارحة.

لم يكن حدثاً كبيراً. لم تكن لحظة إشراق أو انهيار أو مواجهة درامية. كان شيئاً صغيراً جداً، صغيراً بما يكفي ليمر دون أن يلاحظه أحد. لكنه في داخلي كان كبيراً بطريقة صعب شرحها.

كنت وحدي في الشقة. ليلى كانت قد مرّت في المساء وذهبت مبكراً. جلستُ بعد أن أغلقت الباب خلفها، وفجأة، بدون سبب واضح، بدون مقدمة، شعرت بشيء ثقيل يصعد من مكان عميق في الصدر.

لم أحاول أن أوقفه.

هذه كانت المرة الأولى التي لم أحاول فيها أن أوقفه.

* * *

جلست على الأرض كعادتي، ظهري إلى الأريكة، وتركت الشيء يصعد.

وبكيت.

ليس تحت الماء هذه المرة. ليس في الحمام مع إغلاق الصنبور. ليس بالطريقة التي تعلّمتها من صغرك، المكبوتة، الصامتة، التي تحرص ألا يسمعها أحد حتى لو لم يكن في البيت أحد.

بكيت بصوت. صوت غريب عليّ، لم أسمعه من نفسي من قبل. صوت فيه شيء يشبه الطفل أكثر مما يشبه الرجل. وجلست مع هذا الصوت ولم أُخجله ولم أُسكته.

وبعد وقت لا أعرف كم كان، هدأ الشيء. ببطء، كما يهدأ البحر بعد موجة. لم ينته تماماً. لكنه هدأ.

* * *

وبعد أن هدأ، حدث شيء لم أتوقعه.

أحسست بشيء يشبه الخفّة.

ليست السعادة، ليست الفرح، ليست أي شيء كبير. مجرد خفّة. كأن شيئاً كان يجلس على صدري منذ زمن طويل قرر أن يقف ويمشي قليلاً. ما زال موجوداً في الغرفة، لكنه ليس فوقي في تلك اللحظة.

جلست في تلك الخفّة الغريبة ولم أحرك شيئاً. خفت إن تحرّكت أن تذهب.

* * *

حاولت في تلك اللحظة أن أتخيّلك. أنت، الطفل الذي كنته. جلست على الأرض ورأيتك في خيالي كما تراءيت لي، ليس من الصورة القديمة بعيون يقظة لا تبتسم، بل كما كنت قبلها، قبل أن تتعلم اليقظة الحذرة.

رأيت طفلاً يركض. لا أعرف من أين جاءت هذه الصورة لكنها جاءت بوضوح. طفل يركض في مكان مفتوح، ليس هارباً، بل فقط يركض لأن الركض ممتع وكافٍ. شعره في الهواء وصوته يضحك بتلك الطريقة التي يضحك بها الأطفال حين لا يفكرون في شيء.

لا أعرف إن كنت هكذا يوماً. ربما كنت. ربما قبل أن تتعلم التحفظ كانت هناك لحظات ركضت فيها وضحكت بدون أن تحسب شيئاً.

أتمنى أن تكون كانت هناك هذه اللحظات. تستحق أن تكون قد عشتها.

* * *

المصالحة التي كنت أبحث عنها طوال هذه الرسائل لم تأتِ بالطريقة التي توقّعتها.

توقّعت أنها ستكون لحظة واضحة. قراراً. جملة تقولها لنفسك وبعدها يتغير شيء بشكل ملموس. توقّعت أنها ستشبه إغلاق ملف كان مفتوحاً طويلاً.

لكنها لم تكن هكذا.

كانت بكاءً على الأرض في شقة هادئة. كانت صوتاً لم أسمعه من نفسي من قبل. كانت خفّة غريبة بعد ثقل طويل. كانت صورة طفل يركض في خيالي لا أعرف إن كانت ذكرى أم أمنية.

المصالحة ليست حدثاً. هي لحظات متفرقة تتراكم ببطء حتى تُدرك يوماً أنك أصبحت أقل حرباً مع نفسك مما كنت.

* * *

اتصلت بليلى في الليل. ردّت وسألت: كل شيء تمام؟

قلت: بكيت

صمتت لحظة. ثم قالت بصوت فيه شيء دافئ: وإيه؟

وحسيت بخفّة بعدين

قالت: ده كويس

لم تسأل لماذا. لم تسأل عن التفاصيل. فقط قالت «ده كويس» بطريقة جعلت الكلمتين تكفيان تماماً.

قلت: أنا عايز أشوفك بكره

قالت: أنا كمان

وأغلقنا الخط. وجلستُ وأنا أُدرك أنني قلت ما أريده بدون أن أُحوّله إلى سؤال أو اقتراح أو أي شيء أقل من ما هو. قلت «أنا عايز» .وهذا وحده كان فعلاً جديداً

* * *

.الطفل الذي بداخلي لم يختفِ

لم أتوقع أن يختفي. المصالحة لا تعني الاختفاء. تعني شيئاً آخر، أصعب وأهم. تعني أن تجعل له مكاناً. أن تقول: أنت موجود وأنا .أعرف ذلك وأنا لن أتظاهر بعد الآن أنك لست هنا

.أن تعترف بوجوده لا أن تُخمده

وحين تعترف بوجود شيء، حين تُسمّيه وتتركه يكون، يتوقف أحياناً عن أن يكون الشيء الوحيد الذي تفكر فيه. يجد مكانه بين الأشياء الأخرى. لا يختفي، لكنه يصبح جزءاً من الصورة لا الصورة .كلها

* * *

أفكر الآن في كل الأشياء الصغيرة التي يستحقها ذلك الطفل ولم .يأخذها

يستحق أن يُقال له إنه كافٍ. يستحق أن يركض ويضحك بدون أن يحسب ردود فعل من حوله. يستحق أن يُخطئ بدون أن يُعاقب نفسه على كل خطأ حتى اليوم. يستحق أن يطلب ما يريد بدون أن يُحوّل الطلب إلى اعتذار. يستحق أن يبكي بصوت حين يحتاج.

لا أستطيع أن أُعطيه الطفولة التي لم يعشها. الوقت لا يعمل بهذه الطريقة.

لكنني أستطيع أن أُعطيه ما يمكن إعطاؤه الآن. أن أعيش الحاضر بطريقة تقول له: أنا أسمعك. أنا لا أُخجلك. أنا لن أُسكتك بعد الآن.

* * *

عزيزي الصغير،

لا أعرف إن كنت ستسمع هذا. لكنني أقوله على أي حال لأن بعض الأشياء تحتاج أن تُقال حتى لو لم يكن هناك من يسمع.

أنت لم تكن ثقيلاً. لم تكن مشكلة. لم تكن سبب تعب من حولك. كنت طفلاً يحتاج ما يحتاجه كل طفل، ولم تجده بالقدر الكافي. وهذا ليس دليلاً على نقصٍ فيك. هذا دليل على نقص في ما حولك.

وأنت كبرت رغم كل ذلك. وصلت إلى هنا رغم كل ذلك. وأنا، الذي أصبحته، أجلس الآن وأكتب هذا، وهذا أيضاً شيء فعلته أنت، حملت ما حملته وسرت بيه حتى وصلت إلى هنا.

شكراً لك على هذا.

وأنا، من جهتي، أعدك بشيء واحد فقط، لا بالنهايات السعيدة المضمونة ولا بالشفاء الكامل ولا بأي شيء أكبر مما أستطيع الوفاء به.

أعدك أنني لن أُسكتك بعد الآن

الصبح كان بارداً قليلاً.

هذه أول جملة أكتبها ليست رسالة. ليست «عزيزي الصغير» وليست خطاباً لأحد. مجرد جملة تصف ما هو أمامي. الصبح كان بارداً قليلاً، والشمس كانت تدخل من الشق في الستارة وتضع خطاً ذهبياً على الأرض بجوار الأريكة.

استيقظت مبكراً. لا أعرف لماذا. لم يكن هناك سبب. جلست على الأرض كعادتي، كوب القهوة في يدي، والبيت ساكت بالطريقة التي

يكون فيها البيت ساكتاً في الصباح الباكر قبل أن يبدأ اليوم في الكلام.

وجلست هكذا.

فقط جلست.

* * *

ليلى ستأتي بعد ساعتين. اتفقنا على فطور. شيء عادي جداً، فطور في الصباح، لكنني أجد نفسي أفكر فيه بطريقة مختلفة عن المعتاد. لا أفكر في كيف سأبدو أو ماذا سأقول أو كيف سأملأ الصمت إن جاء. أفكر فقط أنها ستأتي وأنني أريد أن أراها. هذا كل شيء. وهذا الـ«كل شيء» أبسط وأثقل في نفس الوقت مما اعتدت عليه.

ربما هذا ما يبدو عليه الحضور حين يأتي ببطء. لا تشعر به كثوراً. تشعر به كصباح بارد قليلاً وكوب قهوة وفكرة بسيطة: أريد أن أراها.

* * *

فكّرت كثيراً في الأيام الأخيرة في كلمة ربما

كنت أكره هذه الكلمة. تبدو ضعيفة، متذبذبة، كلمة من لا يعرف ما يريد. كنت أفضّل اليقين أو الصمت. «نعم» أو «لا» أو لا شيء. «ربما» كانت تبدو كهروب من الإجابة.

لكنني أدركت أنني كنت مخطئاً.

ربما ليست ضعفاً. «ربما» هي الكلمة الوحيدة الصادقة أمام الأشياء التي لا يعرف أحد نتيجتها مسبقاً. والحياة، معظمها، من هذا النوع.

* * *

ربما سأتعلم كيف أبقى حاضراً حين يصعب الحضور.

ربما سأسحب يدي مرة أخرى قبل أن يمسك بها أحد، وربما لن أفعل.

ربما سأجد يوماً الكلمات التي ظلّت معلّقة منذ كنت في الحادية عشرة وأُكمل الجملة التي بدأت بـ«أنا حاسس بـ...»

ربما ستجيء لحظة أقول فيها لليلى ما أريد قوله بالوضوح الكامل، بالكلمات الثلاث الكاملة، بدون أن يقفها شيء في منتصف الطريق.

ربما سأتصل بأبي مرة أخرى. وربما ستكون المكالمة أطول من دقيقتين. وربما لن تكون. وكلا الاحتمالين موجود وحقيقي.

ربما الجروح لا تختفي تماماً. ربما تصبح ندوباً والندوب تصبح جزءاً من الخريطة لا حاجزاً أمامها.

ربما الطفل الذي بداخلي سيجد مكانه تدريجياً. ليس مكاناً يُخبّأ فيه. مكاناً يُعاش منه.

* * *

الشيء الوحيد الذي أعرفه بيقين الآن هو هذا

أنا هنا.

ليس بالمعنى الجسدي فقط. بل بالمعنى الأعمق. أنا هنا، في هذا الصباح، في هذه الشقة، مع هذا الكوب الدافئ، وأنا أشعر بما أشعر به دون أن أُحوّله على الفور إلى شيء مقبول أو شيء مُغلق. أنا هنا وأعرف أنني هنا.

هذا لم يكن صحيحاً دائماً. وكونه صحيحاً الآن يعني شيئاً.

* * *

وضعت الأوراق كلها على الطاولة أمامي. خمس عشرة رسالة، بعضها مكتمل وبعضها لا، بعضها نظيف وبعضها فيه كلمات محذوفة وأسطر معاد كتابتها. نظرت إليها جميعاً.

لم أشعر بالفخر بالمعنى الكبير. شعرت بشيء أهدأ. شعرت أن شيئاً ظل بداخلي صامتاً منذ وقت طويل قد تكلّم. وأن الكلام، حتى لو لم يُغيّر كل شيء، أفضل من الصمت الذي لا ينتهي.

أعدت الأوراق إلى بعضها ببطء. لم أُعدّلها ولم أمزّق شيئاً. تركتها كما هي، بنقصها وباكتمالها، بما فيها من ارتجاف وما فيها من وضوح.

ووضعتها في الدرج.

لكن هذه المرة لم أُغلق الدرج بالطريقة التي تعلّمتها. تركته مفتوحاً قليلاً.

* * *

الخط الذهبي من الشمس تحرّك على الأرض.

القهوة بدأت تبرد.

ليلى ستأتي بعد ساعة وأربعين دقيقة.

والبيت ساكت بطريقة لا تُخيفني هذا الصباح.

وفي داخلي، في المكان الذي كان فيه الطفل الذي كنته يجلس وحيداً على درجة حجرية في ملعب مدرسة ويقرأ كتاباً لأنه لم يجد مكاناً آخر يضع نفسه فيه.

في ذلك المكان بالضبط.

شيء ما أصبح أهدأ قليلاً.

ليس مُعالَجاً. ليس منتهياً. ليس خالياً من الألم.

فقط أهدأ.

وأهدأ يكفي.

يكفي أن تبدأ.